العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

الغربة والحنين إلى الوطن
في شعر ابن معصوم المدني

الدكتور: كريم علكم الكعبي
كلية الآداب والعلوم ـ غريان

ابن معصوم. هو علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم المدني نسبة إلى المدينة المنوّرة، مكان ولادته ومرتع صباه؛ إذ ولد سنة 1052هـ[1] وينتسب بعد ثلاثين جداً إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[2]. وأبوه أحمد نظام الدين وأمه ابنة الشيخ

(1) ينظر سلوة الغريب وأسوة الأريب (رحلة ابن معصوم) تحقيق شاكر هادي شكر، بيروت 1408هـ 1988ف ص: 26.

(2) ينظر الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني ط1 ـ طهران 1372هـ: 11/ 246 وأنوار الربيع في أنواع البديع «ابن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر ط1 مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1388هـ ـ 1968ف: 1/ 25.

محمد بن أحمد المنوفي إمام الشافعية في الحجاز[3]، وأفصحت سلسلة نسبه عن عراقة عروبتة ونقاوة أصله، وقال عنها الأميني «طنب سرادقها بالعلم والشرف والسؤدد من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء توتي أكلها كل حين. اعترقت شجونها من الحجاز إلى العراق. . . وهي مثمرة يانعة حتى اليوم يستبهج الناظر إليها بثمرها وينعه»[4] يكنى بأبي الحسن وأبي منصور[5] له ثلاثة أخوة: اثنان من أبيه الأول: محمد يحيى، والثاني منصور، والثالث من أمه وهو أحمد بن علي بن القاسم المكي[6]، وأخلف ثلاثة أولاد هم: محمد أمين ومجد الدين وأبو إسماعيل إبراهيم[7]، اشتهر أبوه بعلمه وأدبه، وطبقت شهرته الآفاق، فاستدعاه عبد الله قطب شاه سلطان حيدرآباد سنة 1054هـ وزوجه ابنته، وقلده أرفع مناصب المملكة[8]، وبعد سنتين من هجرة الوالد استقدم عائلته من الحجاز عام 1068هـ وعُمر ابن معصوم لم يتجاوز الخامسة عشرة[9]، وكانت الرحلة من مكة التي جاورها، وقد وصفها في كتابه «سلوة الغريب وأسوة الأريب» وأقام ابن معصوم مع أبيه في حيدرآباد ثمانية عشر عاماً قضاها بالعز والتحصيل والتأليف، وبعد موت الملك عبد الله قطب شاه قلب الحاكم الجديد أبو الحسن ظَهْر المِجَنِّ لعائلة ابن معصوم، فألقى بعميدها في الحجر ثلاث سنوات مات

---

(3) ينظر سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر «ابن معصوم المدني» ط2 مطابع علي بن علي، الدوحة، قطر 1382هـ: 124.

(4) الغدير: 11/347.

(5) السلافة: 269، 237.

(6) سبحة المرجان في آثار هندستان، غلام علي آزاد 1303هـ: 86.
وكنز العرفان في معرفة آل السيد علي خان المدني الحسيني/ عبد الجليل آل السيد علي خان المدني، المطبعة الحيدرية، النجف 1393هـ/ 1973ف ص65.

(7) ديوان ابن معصوم، تحقيق شاكر هادي شكر ط1 بيروت 1408هـ ـ 1988م ص98.
وكنز العرفان: 65 ومخطوطة روضة الأعيان في نسب آباء وأبناء السيد علي خان، أحمد الرجيبي. مصورة مكتبة السيد عبد الحليم عبد الكريم المدني في بعقوبة «العراق».

(8) إلى الأدب العربي. د. زبيد أحمد. مجلة ثقافة الهند العدد 2 يوليو 1954، ص54.

(9) سلوة الغريب: 17 وما بعدها.

بعدها[10]، وهرب الابن من الإقامة المفروضة إلى «برهانبور» ولقي عند ملكها «أورنكزيب» الاحترام والاهتمام والرعاية، وسلّمه منصباً عسكرياً كبيراً، ومنحه لقب «خان»، ثم تدرج في المناصب[11]، وبعد واحد وعشرين عاماً في هذه البلاد سئم الحال ورام الاستقرار والعودة إلى الوطن، وكان يرى الاغتراب كابوساً ينبغي التخلص منه، ومما زاد الطين بلّة تعرضه للدسائس والمكايد والحسد من الأعداء الذين أوغروا صدر الملك حقداً عليه، فاشمأز ابن معصوم من هذه العلاقة فطلب من السلطان إعفاءً من مناصبه جميعاً، والرخصة له لزيارة الحرمين الشريفين، فتم له ذلك عام 1114هـ[12] وبعد ستة وأربعين عاماً قضاها في الهند تحقق حلمه الذي تمناه يوم غادر مكة عام 1066هـ فقال:

أمَعادُ هل يُفضي إليكِ مَعادي يوماً برغمِ مُعانِدٍ ومُعادِ
فأفوزَ منكِ بكلِّ ما أملتُه ذُخراً لآخرتي ويومَ مَعادي[13]

ولما وصل (جدة) في رحلة العودة، غمرته فرحة كبيرة وقضى في مكة ثلاثة أيام أدى خلالها مناسك الحج وقال:

أقمنا ثلاثاً ليتَها الدَّهرُ كلُّه إلى أن نفرنا مِن منًى رابعَ العَشرِ[14]

وشعر بنشوة اللقاء بعد الغربة، وكأن الحجاز هذه المرة كالماء للصدِيّ وهو في مدينة الرسول ﷺ قال:

وعفرتُ وجهي في ثَراهُ لوجهِهِ وطابَ لي التعفيرُ إذْ جئتُ عن عُفْرِ[15]

---

(10) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار صادر بيروت «د.ت» 1/ 349. والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني ط1 مطبعة السعادة/ القاهرة 1348هـ: 1/ 68 وسبحة المرجان: 86.

(11) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، عبد الحي الحسيني، الدكن، الهند 1396هـ 1976ف. 6/ 185.

(12) مستدرك الوسائل، الطبرسي المكتبة العلمية في النجف بالأوفست 1384هـ 3/ 386.

(13) الديوان: 603.

(14) م.ن: 171.

(15) م.ن.

تعرض ابن معصوم في الهند إلى أحداث «تستفرغ صبر الجليد، وصروف أيام تشيب بوقائعها رأس الوليد، ووصفها نفسه: وتعاساتي لمحن البين والأغراب وفراق الوطن والأهل والأتراب. إلى غير ذلك من لوائح أنكاد، وحرق، وخطوب لو شرحها لسان القلم، لالتهب بنارها واحترق، لاسيما مع التخلي عن كل صاحب وأنيس، والتحلي بهموم كان الدهر قصد بالجمع بينها وبين همي التجنيس. وإلزامي داراً أضيق من سم الخياط، يكاد ينقطع للدخول فيها من القلب النياط، ولا جليس ولا أنيس إلا كتاب أو صحيفة آنس فيها إلى فنون البحث»[16] حتى إنه لم يطقها ولم يتعايش معها لحسه القومي، ونزعته العلمية في التأليف وخدمة اللغة العربية وعلومها، لهذا وجد في عودته إلى الحجاز بلسماً لجروج وأسقام، وفي كل بلد عربي يزوره شفاءً لغليل وإنقاذاً من محنة، وإيذاناً بحياة جديدة. ومثلما ألفيناه في مكة والمدينة متشوقاً للأرض العربية، نلقاه في النجف وسامراء وكربلاء[17]، وبعد أدائه مراسيم زيارة العتبات المقدسة في العراق، توجه إلى طوس في فارس، ثم استقر في أصفهان زمناً[18]، ثم غادر على خلاف مع حسين الصفوي متوجهاً إلى مشهد؛ لزيارة مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عام 1118هـ[19]، ثم غادرها إلى شيراز، وحط بها عصا الترحال، وانصرف فيها إلى التأليف والتدريس في المدرسة المنصورية التي بناها جده السابع منصور غياث الدين 948هـ[20]. وألف في شيراز (شرح الصمديّة) فنظم كثيراً من شعره، وأنجز نصف معجم «الطراز الأول» حتى مات في شيراز سنة 1120هـ[21]، ودفن قرب قبر السيد ماجد البحراني[22] بحرم

---

(16) السلافة: 27.

(17) نشوة السلافة ومحل الإضافة ابن بشارة آل موحي، تحقيق محمد بحر العلوم، النجف «د.ت»: هامش ص6.

(18) الغدير: 11/ 351.

(19) الديوان: 176.

(20) أبجد العلوم/ الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم/ القنوجي بيروت «د.ت» 3/ 237.

(21) الكنى والألقاب/ عباس القمي/ مطبعة العرفان/ صيدا 1358هـ: 3/ 317.

(22) الغدير: 11/ 349.

«أحمد بن الإمام موسى بن جعفر» وبقرب قبر جده منصور غياث الدين[23].

كان ابن معصوم قدحة مضيئة في عصر ساده التخلف والانكسار، وواحداً من أفذاذ الأمة التي ظل نسغها وتراثها حياً في ضمائرهم، تلقوه كما تلقاه الأجداد، نقياً صافياً من منابعه الأصيلة، غير بعيدين عن الدافع القومي في عصر سيطر فيه الأجانب واستبدوا وطغوا، وقد أصرّ ابن معصوم في زمنه على عروبته وإسلامه والدفاع عنهما بانحياز تام، على الرغم من غربته منذ صباه عن وطنه الحجاز، فكان ابناً باراً للعربية في غربته تأليفاً وتدريساً، فلمع أديباً ومؤلفاً موسوعياً. إذ ترك واحداً وعشرين مؤلفاً في الأدب والبلاغة والتراجم والدين واللغة والرحلة والتاريخ، أبرزها (سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر) و(أنوار الربيع في أنواع البديع) و(سلوة الغريب وأسوة الأريب) و(ديوان شعر فخم) ضم ما يقرب من خمسة آلاف بيتاً، وفي أغراض الشعر جميعاً سوى الهجاء والمديح التكسبي، ومن أبرز أغراضه الغربة والحنين إلى الوطن، إذ اغترب ابن معصوم عن الحجاز وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة، وقضى في بلدين أعجميين إحدى وخمسين سنة، إلا أنه لم ينقطع عن حنينه للعرب وموطنهم، فهو من سلالة الرسول ﷺ، وكثيراً ما اعتز العربي بوطنه، وجاء عن ابن عباس (رضي الله عنهما) «لو قنع الناس بأرزاقهم، قناعتهم بأوطانهم، ما اشتكى عبدٌ الرزق»[24] ومهما تبدلت الأحوال وتقلبت الأمور حُسْناً أم سوءاً تبقى الغربة مُرّة في أفواه المغتربين، ويستفحل أمرها عندما يطول البعاد ويمتد النوى، سواء أكانت أسبابها قسرية أم طوعية. ويظل الوطن أهزوجة على الشفاه تردد كل حين تهيج ذكراه، كل هبة ريح، أو صدح حمامة، أو هدوء ليل، أو انبلاج صباح، فيتعانق الشوق مع الأمل، ويستحضر الغريب وطنه الأول الذي يظل هاجساً قوياً، حتى كانت الغربة عند ابن معصوم عاملاً في تفجير كوامن النفس

(23) سبحة المرجان: 87 وسفينة بحار الأنوار/ عباس القمي/ طبعة حجرية/ 2/ 245. ورياض العلماء/ عبد الله الأفندي/ مخطوطة مكتبة أمير المؤمنين العامة في النجف الأشرف رقم 2199/ 8 ص235.

(24) الوطن/ إبراهيم الأبياري ص12.

وإثارتها للتعبير عن مشاعره تجاه وطنه، أرض العرب ومهبط الوحي، الحجاز وهو يحتضن مكة والمدينة. ولما كان شاعرنا حجازياً فقد تغنى به. ويذهب قارىء شعره، لأول وهلة، إلى أنه تقليدي، مثلما فعل الشريف ومهيار والأبيوردي، بسبب تشابه الأفكار والمعاني، إلا أن الفرق بين ابن معصوم وباقي شعراء الحجازيات، وكما أسلفت، يظل كبيراً، فشاعرنا ولد في الحجاز وقضى أكثر من أربعة عشر عاماً فيها بين المدينة ومكة، ولم يغادرها راضياً، فأحسّ، وللوهلة الأولى، بألم الغربة ومرارة النوى عن الأهل والأرض، فجاءت قصائده في نجد والحجاز من باب الحنين إلى الوطن وليس من باب تقليد حجازيات غيره، التي قيلت لأسباب دينية أو سياسية كما هو الحال عند الشريف الرضي ومهيار والأبيوردي وابن المعلم وغيرهم، في حين صدرت حجازيات ابن معصوم عن نفس آلمها البعد والفراق الحقيقي للوطن، فحنّ إليه حنين الثكالىٰ، فبكاه وتشوق إليه تشوق الصب الولهان، وتحقق في هذه القصائد صدق التجربة.

كشفت حياة ابن معصوم في مكة عن نباهة وفطنة وذكاء وحسن تصرف، وله مساهمات اجتماعية وعلاقات حميمة مع مواطنيه وأقاربه، فحق عليه تذكُّرهم؛ إذ لم تعد التجارب العاطفية السبيل الوحيد لتذكُّر الأوطان، كما أنه شعر بالغربة لحظة وداعه وهو متجه إلى الهند فقال:

1 ـ فارقتُ مكةَ والأقدارُ تُقحِمُني
ولي فؤادٌ بها ثاوٍ مدىٰ الزَّمنِ

2 ـ فارقتُها لا رضًى مني وقد شهَدتْ
بذاك أملاكُ ذاك الحِجر والرُّكنِ

3 ـ فارقتُها وبودّي ـ إذ فَرَقتُ بها ـ
لو كانَ قد فارَقتْ رُوحي بها بَدني[25]

(25) الديوان: 641.

وظل الشاعر طول حياته لهجاً بذكر نجد والحجاز، فنظم قصائد طوالاً ومقطوعات كثيرة بلغت إحدى وثلاثين مقطوعة، وقصيدة عدد أبياتها 443 بيتاً. فضلاً عما تضمنته مقدمات قصائد المديح والمدائح النبوية من أبيات الحنين إلى الوطن، الأمر الذي جعل ابن معصوم لا يترك موقفاً إلا واستغله لِبَثِّ عواطفه وأحاسيسه تجاه نجد والحجاز والأرض العربية، وصار أمله الوحيد في الحياة العودة إلى مكة ليتخلص من ورطة الغربة، فجاء شعره في هذا الباب خير معبر عن معاناة حقيقية وتجربة صادقة، فقد أكثر من ذكر الأماكن الحجازية وتذكر أيام الصِّبا والشباب، وأفصح عن آلام البعد والفراق، ووصَفَ لائميه على حالته ومعاناته بشتى النعوت، إلا أنه لم يبعد عن بعض مظاهر الحجازيات التقليدية؛ كذكر المحبوبات وأسمائهن وصفاتهن، فأضفى عليهن شتى النعوت التي استنفد فيها عواطفه وصب شوقه، فتحسبه عاشقاً ولِهاً أعطى مشاعر الحب لنجد والحجاز، وإن حياة الشاعر القلقة وتربيته وانقطاعه للعلم والتأليف والتدريس حالت دون تجربة حب حقيقي له وعلى الرغم من أن قصائده تفوح بعطر مشاعر عاشق عذَّبه الحب وأضناه الفراق، إلا أنه أحب الحجاز وأرض العرب، وشكا الشاعر من الغربة حتى إنه ما بات قادراً على تحملها، وكان يأمل العودة وجمع الشمل، وبحسرة وتوجع جسد هذه المعاني فقال:

7 ـ آهٍ مـن الـبَـيـن الـمُـشِـتِّ والـنَّـوى
كـم قـرَّحـا مـن كـبـدٍ وخـدّ

8 ـ فـهـل تـرى يـنـتـظـمُ الـشَّـمـلُ الـذي
قـد نـثـرتـهُ الـبـيـنُ نـثـرَ الـعِـقـدِ

9 ـ وهـل لأيـام الـصِّـبـا مـن رَجـعـةٍ
أم هـل لأيـام الـنَّـوى مـن بُـعْـدِ[26]

وظل النوى يؤرقه وينغص صفو حياته، فلم يطب له فيها مشرب ولم تهدأ له فيها حال، وشده الشوق لديار العرب فقال:

(26) م.ن: 149.

9 ـ منذ أقصتهُ النَّوى عن داركم
ما أساغَ الدهرُ يوماً مَشْرَبهْ

10 ـ وإذا رام هُجوعاً طَرفُهُ
هزَّه الشوقُ إليكم فانتَبهْ[27]

وقرح البعد قلبه وأذكى نوح الطائر فيه جذوة الذكرى حتى حالت أيامه ظلاماً لا ينقطع فيقول:

6 ـ فبتُّ بقلبٍ كلَّما ناحَ طائرٌ
تطايرَ من أنفاسه شررُ الجمرِ

7 ـ وعَبرةِ عَينٍ لا تجفُّ جفونُها
إذا هتفت أيكيَّةٌ أقبلت تَجري

8 ـ أراعي دُجَى لا يَستحيلُ ظَلامُها
وأنجمَ ليلٍ لا تَسيرُ ولا تَسري[28]

وتهيج الذكرى أشياء كثيرة فإذا لاح بارق في الليل آلمه وأيقظ أحاسيس ممضة سببها البين الذي ليس بوسعه التخلص منه فيقول:

30 ـ لَعمري لقد ألوَتْ بأيامِ وصلِنا
حوادثُ أيامٍ أساودُها رُقطُ

31 ـ وبُدِّلتُ عن قُرب الوصال بخطَّةٍ
من البَين لا يُمحى بدمعي لها خَطُّ

32 ـ تؤرِّقُني الذكرى إذا لاحَ بارقٌ
يلوحُ بفَوْد الليل من لمعِه وَخْطُ[29]

---

(27) م.ن: 69.

(28) م.ن: 208.

(29) م.ن: 263.

حتى ضاق ذرعاً بهذا البين فلم يطقه لولا حبه الذي هوَّنَ عليه الآلام فقال:

7 - ضقت ذرعاً[30] بالبعد فيكم ولولا
حبُّكم لم يضق من البين ذرعي[31]

وكان يكابد النوى الذي أوصله إلى حنين لا مثيل له فصار يومه عاماً، فحبذا ذلك الزمان والدنيا فيه مقبلة والدهر غض والحياة أبوابها مشرعة، وبعد عشرين عاماً من الغربة يقول:

6 - وكابدتُ النَّوى عشرين عاماً
ويومٌ من نَوى الأحباب عامُ

7 - أحنُّ إلى الخيام وإنَّ قلبي
لمرتَهنٌ بمن حَوتِ الخِيامُ

8 - وأذكرُ إذ يُظلِّلُنا بَشامٌ
بشرقيِّ الحِمى سُقِيَ البَشامُ

9 - فيا زَمني إذ الدُّنيا فتاةٌ
كما أهوى وإذْ دَهري غُلامُ[32]

وأفصح عن مدى تعلقه بالحجاز وأهله لمّا جعل موطنهم سويداء قلبه فقال:

1 - يا راحلينَ وهم في القَلب سكَّانُ
هل غيرُ قلبي لكم مأوى وأوطانُ

2 - خذوا من الأرض أنّى شئتم نُزُلاً
فأنتم في سويدا القلب قُطَّانُ[33]

---

(30) م.ن: 277.
(31) م.ن.
(32) م.ن: 424.
(33) م.ن: 447.

وهذا البعد والفراق، وتلك الغربة والنوى وويلاتها، قد أثارت لديه ذكريات تزاحمت، في قلب أسير، وقلقلت استقراره الذي لم يجربه، فصارت حياته دوامة من الحسرات يتطاير شررها نحو أرض الصِّبا ومهد الشباب، فخمسة عشر عاماً قضاها بين مكة والمدينة أرض العرب ومهبط الرسالة أججت في نفسه حناناً فريداً لتلك الربوع وأهلها، حتى باتت صورها عالقة لم تبل أو تتلاشى، فهي في تجدد، فيدعو لها خيراً فيقول:

8 ـ يـا رَعـىٰ الله بـالـحِـمـى عـصـرَ أُنـسٍ
عـشـتُ فـيـه حـيـنـاً مـن الـدهـرِ رَغْـدا

9 ـ حـيـث روضُ الـشـبـاب غـضٌّ نـضـيـرٌ
وغـصـونُ الـصِّـبـا تـرفُ وتَـنـدى

10 ـ وزمـانـي ذاك الـزمـانُ الـمُـهـنَّـى
وحـبـيـبـي ذاكَ الـحـبـيـبُ الـمُـفـدَّى[34]

ولم ينس أيامه في مكة فهي عطرةٌ بنشرها الفواح، ولو تُشْتَرى لابتاع ساعتها بالدهر كله، وليس أدق من هذا الشعور تجاه الوطن والحنين له لدى الشاعر الذي تجاذبته آلام فراق الأهل والأحبة فيقول:

15 ـ لـم أدر أيُّ الـغُـصَّـتـيـن أسـيـغُـهـا
إن عـنَّ لـي ذكـرُ الـفـراق أو اعـتَـرى

16 ـ أفـراقَ إلـفـي أم فـراقَ مَـواطـنـي
وكـلاهـمـا لـهـبٌ بـقـلـبـيَ قـد وَرى

17 ـ لله أيـامـي بـمـكـةَ والـصَّـبـا
تـهـدي إلـى فَـودَيَّ مِـسـكـاً أذفـرا

18 ـ أشـري بـكـلِّ الـدَّهـر مـنـهـا سـاعـةً
لـو أنـهـا مـمـا تُـبـاع وتُـشْـتَـرى[35]

---

(34) م.ن: 147.

(35) م.ن: 222.

وصار أمام حالة لا يعرف فيها، متى يعود إلى وطنه، ومتى ينقضي البعاد، وحاله حينئذ كحال الحمامة النائحة، ولكن شتان ما بين النوحين! وبمثل هذه المشاعر نحو الوطن كان يتطلع للقاء الأهل، واتخذ من نوح الحمام سبيلاً للمقارنة فليس قصد الحمام مثل قصده، ولا بكاؤه مثل بكائه ولا لوعة حبه مثل نواحها، فهي فوق الغصون لاهية وهو يتضور ألماً ويصبو إلى أحبته، فإن أظهرت الحمامة ما عندها فقد ستر ابن معصوم معاناته، وشتان ما بين مُخْفٍ سرَّهُ ومبديه، وباسترسال شائق وألفاظ عذبة وموسيقى تناسب الحالة الشعورية يقول:

7 - آهٍ من البينِ المشتِّ والنوى
كم قرَّحا من كبدٍ وخدِّ

8 - فهل ترى ينتظمُ الشملُ الذي
قد نثرتُه البينُ نثرَ العِقدِ

9 - وهل لأيام الصِّبا من رَجعةٍ
أم هل لأيام النَّوى من بُعْدِ

10 - أنوحُ ما ناحَ الحمامُ غُدوةً
هيهاتَ ما قصدُ الحَمام قَصدي

11 - أبكي وتبكي لوعة أو طربا[36]
وما بكاء الهزل مثل الجد

12 - ظنت حمامات اللوى عشية
في الحب أن عندها ما عندي

13 - تَلهو على غُصونِها ومُهجتي
تصبُو إلى تلك القُدود المُلْدِ

(36) وردت في الديوان «وطربا» والصواب ما أثبتناه ليستقيم الوزن.

14 ـ شـتـان مـا بـيـن جَـوٍ وفَـرِحٍ
وبـيـن مُـخْـفٍ سـرَّه ومُـبْـدِ[37]

وبرزت في شعر الحنين لدى ابن معصوم أماني العودة وطموح اللقاء بالأهل والخلان ورؤية الحجاز ثانية فقال:

1 ـ ذاك الـحـجـازُ وهـذه كُـثْـبـانُـهُ
فـاحـفـظ فـؤادَك إن رنَـتْ غـزلانُـهُ

2 ـ واسفَح دموَعك إن مررتَ بسفحه
شـغـفـاً بـه إنَّ الـدمـوعَ جُـمـانُـهُ

3 ـ وسلِ الـمـنـازلَ عـن هـوًى قـضَّـيـتـه
هـل عـائـدٌ ذاك الـهـوى وزمـانُـهُ

4 ـ لـهـفـي عـلـى ذاك الـزمـانِ وأهـلـهِ
وسـقـاهُ مـن صَـوب الـحَـيـا هـتَّـانُـهُ[38]

وقوله:

16 ـ لا أغـبَّ الـمـزنُ مـن أم الـقـرى
مـنـزلاً كـان لأسـمـاءَ ومَـنْ

17 ـ لـو دعـانـي الـدهـرُ يـومـاً دعـوةً
نـحـوه أو قـالـت الأقـدارُ هَـيْ

18 ـ جـئـتُـه أسـعـى عـلـى الـرأس ولـم
أرضَ لـلـسَّـعـي إلـيـه قـدمَـيْ

19 ـ يـا حُـداةَ الـعـيـس أقـصـى أمـلـي
وقـفـةٌ بـيـن كـداءٍ وكُـدَيْ[39]

---

(37) الديوان: 149.

(38) م.ن: 465.

(39) م.ن: 484. كداء «بالفتح والمد»: ثنية بأعلى مكة المكرمة عند المحصب وفيها دار النبي عليه الصلاة والسلام، كدى «بالتصغير»: مناخ من خرج من مكة بريد اليمن.

ويخاطب مكة المكرمة خطاب متهلف لرؤيتها والعودة إليها على الرغم مما يكيده الأعداء، وحينئذ يفوز بكل آماله وتتحقق تطلعاته، وبتوسل مرتبط بأمل في نفس الشاعر المتألم فيقول:

1 - أمَعادُ هل يُفضي إليكِ مَعادي
يوماً برغم مُعاندٍ ومُعادِ

2 - فأفوزَ منكِ بكلِّ ما أمَلتُه
ذُخراً لآخرتي ويوم مَعادي[40]

وتشوق عن بعد لموطن صباه وفيه العيش الهادىء وفي هجره الموت، وذلك إحساس فريد لدى ابن معصوم، ودعا الله أن يديم الخير والنعمة في وطنه، ولم ينس أيام صباه فحياها وسلم عليها ما طال الزمن وامتد الدهر فقال:

15 - لنا من وصلها العيشُ المهنَّا
ولكن هجرُها الموتُ الزؤامُ

16 - فيا عصر الصِّبا والأُنسُ بادٍ
سقاك الغيثُ عارضُهُ رُكامُ

17 - ويا عصرَ الشباب عليك منِّي
مدى الدَّهر التحيةُ والسلامُ[41]

وأفصح ابن معصوم عن حب فريد لنجد والحجاز، دون أن يميز بين هضابها ووديانها وصحاريها شمالها وشرقها وغربها وجنوبها، بلغ درجة الهيام بهذه الأرض والتعلق بكل ما فيها، ولم يستطع الخلاص من هذه الحالة الشعورية التي دفعته صوب شوق وانفعالات لأرض الحجاز، ومن خلالها لكل الأرض العربية التي أخذت موقعها في نفسه، وبعد ما كابد من قساوة الحياة

(40) الديوان: 603. ومعاد اسم من أسماء مكة المشرفة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85] تنظر سلوة الغريب: ص40.

(41) الديوان: 424.

اليومية في الهند، واسترسل في قصائده يعدد محاسن أرض الحجاز وأهله وفتياته وحيواناته وطيوره وأشجاره، حتى تداعت أسماء الأماكن الحجازية متدفقه إلى قصائد بلغ حد القسم بها.

فذكر «المنحنى والعقيق وأجياد والأبطحين وشرقي الحمى والمأزمين، والخيف ومنى والحجاز ونجد وزرود ووجرة والأباطح والجرعاء، ومنعرج اللوى والمحصب وسلع وطيبة والحجر وحاجر ورامة والنقا والمصلى وأم القرى ومكة وزمزم وسويقة والصفا والحجون وجمع والأجرع وبلقع وتهامة وخليص ورابع والغوير والعذيب، وبارق وبرقة والجرعاء، وذي أضم وحزوى، وذو الأثل». وعلى الرغم من غربته التي امتدت أكثر من نصف قرن في بلاد غير عربية قضاها في عز والده، وتقلد فيها مراكز في الدولة متميزة وعالية، وتجول في ربوعها، إلا أنها لم تعوضه عن أرض الحجاز أو تكون بديلاً عنها، ولم يعوض مكانة الأرض العربية في نفسه أو يضاهيها، وكثيراً ما ذكر الهند بما لا يحمد في كثير من المواقف فقال:

1 ـ تـذكَّـرَ والـذكـرى تُـهـيـجُ أخـا الـوجـدِ
مـراتـعَ مـا بـيـن الـغُـويْـر إلـى نـجـدِ

2 ـ أسـيـرٌ يُـعـانـي مـن نـوائِـب دهـرِه
حـوادثَ لا تـنـفـكُّ تَـتْـرى عـلـى عَـمْـدِ

3 ـ إذا شـاقـه مـن نـحـو رامـةَ بـارقٌ
ذرى عَـبـرةً مـن مُـقَـلـتـيـهِ عـلـى الـخـدِّ

4 ـ يـحـنُّ إلـى أحـيـاءِ لـيـلـى بـذي الـغَـضـا
وأيـنَ الـغَـضَـا وَيْـبَ الـمَـشُـوق من الـهـنـدِ[42]

ولما طال البعد واشتد ألم الفراق وذاق مرارة الغربة حسب نفسه أسيراً بأرض الهند، ونعت نفسه مغترباً، وفي إحدى مدائحه النبوية توسل بالرسول الكريم ﷺ لينجيه من هذه البلاد، ويخلصه من غربته فيها فقال:

(42) م.ن: 144. ويب: مثل ويل وزناً ومعنى.

47 ـ يـا أشـرفَ الـرُّسْـلِ والأمـلاكِ قـاطـبـةً
ومـن بـه شَـرَّفَ الله الـنَّـواسـيـتـا[43]

48 ـ سَـمـعـاً لـدعـوة نـاءٍ عـنـك مُـكـتـئِـبٍ
فـكـم أغـثـتَ كـئـيـبـاً حـيـنَ نُـوديـتـا

49 ـ يـرجـوكَ فـي الـدِّيـن والـدُّنـيـا لـمـقـصـدِهِ
حـاشـا لـراجـيـكَ مـن يـأسٍ وحُـوشـيـتـا

50 ـ أضـحـى أسـيـراً بـأرضِ الـهـنـدِ مُـغـتـربـاً
لـم يـرجُ مـخـلـصَـه إلاَّ إذا شـيـتـا

51 ـ فـنـجِّـنـي يـا فـدتـكَ الـنـفـسُ مـن بـلـدٍ
أضـحـت لـقـاحُ الـعُـلـى فـيـه مَـقـالـيـتـا[44]

لقد أحب الأرض العربية كثيراً وتلك المشاعر القومية المتميزة دليل آخر على حبه للعرب على الرغم مما أتيح أمامه من منافذ العيش، إلا أن إحساسه بالغربة وتوقه للقاء أرض الأجداد كان عارماً، وقال في هذه المعاني:

5 ـ أصـبُـو مـن الـهـنـد إلـى نـجـدٍ هَـوىً
وأيـنَ نـجـدٌ مـن ديـار الـهـنـدِ[45]

وقال:

1 ـ يـقـول الـهـاشـمـيُّ غـداةَ جُـزنـا
بـحـارَ الـهـنـدِ نـقـطـعُ كـلَّ وَهْـدِ

2 ـ أتـذكـر عـن هـوى تَـلَـعـاتِ نـجـدِ
وأيـن الـهـنـدُ مـن تَـلَـعـاتِ نـجـدِ[46]

---

(43) يريد بالنواسيت: الناس، مفردها ناسوت.
(44) الديوان: 86.
(45) م.ن: 148.
(46) م.ن: 155.

وكان دقيقاً في تشخيص التعامل بين الناس في الهند ورسم صورة لحياتهم وشعوره بينهم، وكشف عن اختلال في العلاقات الاجتماعية فقال:

9 - حللتُ في سوح قومٍ لا خَلاقَ لهم
سِيان عندهم الأنوارُ والظُّلَمُ

10 - تسطو بأُسْدِ الشَّرى فيها ثعالبُها
والصقرُ تصطادُه الغربانُ والرخَمُ

11 - ويفضل الغمدُ يومَ الفخرِ صارمَه
وتستطيلُ على ساداتها الخدمُ[47]

حسد ابن معصوم ساكني الحجاز لتمتعهم بنشوة العيش في ربوعه، ومن شدة شوقه وهو غريب ناء كرر لفظة الحجاز أكثر من مرَّة في شعره؛ لفرط صبابته وطول معاناته، ويذكرنا بشوق مالك بن الريب لوادي الغضا يوم حضرته المنية فقال ابن معصوم:

1 - وافى خَيالك بعد طول نفارِ
فجعلتُ موطِئَهُ سنى الأبصار

2 - أنَّى اهتدَى منك الخيالُ لبلدةٍ
أقصى وأجهلَ من بلادِ وَبارِ

3 - لا والذي جعل المحصَّبَ دارَها
والهندَ من دون الأحَّبة داري

4 - لم يهدِه إلاَّ تصعُّد زفرتي
فكأنَّها نارٌ تُشبُّ لسارِ

5 - حيَّا فأحيا ذكرَ من لم أنسَهُ
ما كان أغناهُ عن التَّذكارِ

(47) م. ن: 402.

6 ـ آهٍ لأيـامِ الـحـجـاز وسـاكـنـي
أرضِ الـحـجـاز وَرْوضـهِ الـمِـعْـطـارِ

7 ـ حـيـث الـسـلامةُ مـربـعـي ورُبى الـخـمـا
ئِـل مـرتـعـي وحـمـاهُ دارُ قَـراري[48]

ولم يكتف بذكر الحجاز، بل شخص أمام عواطفه أكثر من موقع في هذه الأرض فلم يتردد في ذكرها في نص واحد؛ ليؤكد حبه وتعلقه بتلك الديار العربية التي لم يعوضها شيء في غربته فيقول:

1 ـ خـلـيـلـيَّ هـل عـهـدي بـمـكـةَ راجـعُ
فـقـد قُـلِـيَـتْ بـالـهـنـد مـنِّي الـمـضـاجـعُ

2 ـ وهـل شـربـةٌ مـن مـاء زمـزمَ تـرتـوي
بـهـا كـبـدٌ قـد أظـمـأَتـهـا الـوقـائـعُ

3 ـ وهـل عـامـرٌ ربـعُ الـهـوى بـسُـويـقَـةٍ
فـعـهـدي بـذاك الـرَّبـع لـلـشَّـمـل جـامـعُ

4 ـ وهل من صفا من سالفِ العيشِ بالصَّفا
يـعـودُ لـنـا يـومـاً فـتـصـفـو الـمـشـارعُ

5 ـ سقى الله ما بين الحَجُونِ إلى الصَّفا
مـرابـعَ فـيـهـا لـلـظِّـبـاء مـراتـعُ

6 ـ وجـادَ بـأجـيـادِ مـنـازلَ[49] جـيـرةٍ
بـهـنَّ حـمـامُ الأبـطَـحـيـن سـواجـعُ

7 ـ وحـبَّـا الـحَـيـا بـالـمـأزمـيـن مـعـاهِـداً
فـما عـهـدُها عـنـدي مَدى الدَّهـر ضـائـعُ[50]

---

(48) م.ن: 187.

(49) وردت في الديوان «منازل» والصواب ما أثبتناه.

(50) الديوان 276.

وكلما لاح في الطبيعة شيء تذكر الوطن، فابتسام الروض ونشر الخزامى وبرق الليل وسجع الحمام أثارت في نفسه لواعج الذكرى وأحاسيس الشوق، ولشرقي الحمى من بين المواقع الحجازية موقع خاص في نفسه حتى ذكره في أكثر من قصيدة كما في قوله: «بالله هل يممت شرقي الحمى»[51] «وبشرقي الحمى من ضارج»[52] «لو لم يكن بالحمى الشرقيّ منزله»[53]، وكانت مكة موضع اعتزازه وتقديره، وذكرها تارة بمكة وأخرى بأم القرى، وحبها عنده ليس حديث كذب إذ ارتبط بها منذ صباه وسكنها كأنما سكن الجنان، فرجالها أسود ونساؤها ظباء، حتى آل به الشوق إلى أن يقسم بأهلها الذين كانوا له أقرب من شغاف القلب فيقول:

1 ـ وحياتِكم يا ساكني أمَّ القُرى
ما كان حبُّكمُ حديثاً يفُترى

2 ـ أهوى ديارَكُم التي مَنْ حلَّها
حلَّ الجِنانَ بها وعلَّ الكوثرا

3 ـ واهاً لهنَّ منازلاً ومراتعاً
ترعى الظِّباءَ بهنَّ آسادُ الشَّرى

4 ـ إن هزَّت الآرامُ سمرَ قدودِها
هزَّت ضراغمُها الوشيجَ الأسمرا[54]

وكثيراً ما اعتز بالعرب وأفصح عن هذا الاعتزاز بأكثر من قصيدة؛ مما يعزز قولنا بجيشان الحس القومي في جوانحه، وكان حنينه لهم بالذات، حتى حسدت عينه أذنه لسماعها أحاديث العرب، وليس من سبيل آخر للوصال، وكان العرب كراماً أعزاء شجعاناً ترفعوا عن الخزي والعار، ونزهوا ربوعهم منهما،

(51) م.ن: 163.
(52) م.ن: 69.
(53) م.ن: 63.
(54) م.ن: 221.

وفي هذه المعاني التي هي مظهر من مظاهر الشوق والحب لأرض العروبة وسكانها العرب يقول:

4 ـ يـا عُـريـبـاً لـولاهـم لـم يَـشُـقْـنـي
ذكـــرُ دارٍ ولا تَـــذكُّـــر ربـــع

5 ـ وإذا مـا سـمـعـت عـنـهـم حـديـثـاً
حـسـدت مـقـلـتـي لـذلـك سـمـعـي[55]

وقال:

1 ـ سَـقـى صـوبُ الـحَـيـا أرضَ الـحـجـازِ
وجـادَ مـراتـعَ الـغِـيـد الـجَـوازي

2 ـ وحـيَّـا بـالـمـقـام مـقـامَ حـيٍّ
كِـرامٍ فـي عـشـيـرتـهـم عِـزازِ

3 ـ هُـمُ حـامُـو الـحـقـيـقـةِ يـومَ يـدعـو
حـمـاةُ الـحـيِّ حـيَّ عـلـى الـبـرازِ

4 ـ حَـمَـو بـالـسـمـر بـيـضـهـم وشـامـوا
عـلـيـهـا كـلَّ ذي شـطـبٍ جـرازِ[56]

ومثلما أفاض ابن معصوم في نعوته لمحبوبته، فهو لم يبعد عن تلك النعوت التي ظلت في إطار المعاني القديمة التي طرقها الشعراء القدامى وبأثر من البيئة، وهذا الإصرار بدافع الحس القومي وتأكيده على تجلية حبه لوطنه والشغف به، ويشعر المستقرىء لشعره معاناة حقيقية لإنسان قذفته الأقدار بعيداً عن وطنه إلى بلاد كثيراً ما ذمَّها، ومن مظاهر الاعتزاز بعروبته ترددت في شعره أسماء محبوباته العربيات التقليدية «سعاد، سعدى، نوار، ليلى، أسماء، منى» ونعت النساء العربيات بـ«الظبي، البدر، لواحظها كأنهاالرماح، مدللة، رشيقة

(55) م.ن: 277.
(56) م.ن: 231.

كالغصن، رشا، الجآذر، البيضاء، حمراء الخدود، عطرها فواح، قمر، الآرام، اسوداد الخال، ريم»[57] ولم يأبه بأقوال العاذلين وبلوم اللائمين للابتعاد عن ذكر الحجاز ونجد والكف عن هذا الشعور، بل أصرَّ على حبه وذكرياته، وعدّ ذلك سلوته فلم يستمع لهؤلاء فقال:

21 ـ هيهات يُسلي العذلُ لي كَلَفاً
ويطرِّقُ التأنيبُ لي أذنا[58]

وقد كثرت نصوصه في الكشف عن أحاسيسه وعواطفه المتأججة والتواقة نحو نجد والحجاز، وقد وصلت درجة العشق لوطنه أرض أجداده، ويكفي تقديم النص الآتي كما هو ففيه رسالة واضحة وغرض جلي لكل معاني الود والذكرى والحنين فيقول:

1 ـ أمَا وابتسام الرَّوضِ عن شَنَبِ الزَّهر
وإسفارِ وجه الأفق عن غُرَّةِ الفجرِ

2 ـ ونشرِ الخُزامى فاحَ في طيِّ نَسمةٍ
سرت من رُبى سَلعٍ وطيبةَ والحِجرِ

3 ـ وبرقٍ سَرى ليلاً بأكناف حاجرٍ
فجدَّد لي شوقاً إلى بارقِ الثَّغرِ

4 ـ وسجعِ حمامِ الأيك في عَذَباتِها
تميسُ بها الأغصانُ في حُللٍ خُضرِ

5 ـ لقد هاجَ وجْدِي ذكرُ آرام رامةٍ
وأوْرى بقلبي نارَهُ لاعجُ الذِّكرِ

6 ـ فبتُّ بقلبٍ كلَّما ناحَ طائرٌ
تطايرَ من أنفاسِه شرُر الجمرِ

---

(57) م.ن: 231، 350.

(58) م.ن: 453.

7 ـ وعَـبْـرةٍ عَـيْـنٍ لا تـجـفُّ جـفـونُـهـا
إذا هـتـفـت أيـكـيـةٌ أقـبـلـت تَـجـري

8 ـ أراعـي دُجَـى لا يَـسـتـحـيـلُ ظـلامُـهـا
وأنـجـمَ لـيـلٍ لا تَـسـيـرُ ولا تَـسـري

9 ـ وأصبـو إلـى عـصـرٍ تـقـضَّـى بـحـاجـرٍ
فـيـا حـاجـراً سـقـيـاً لـعَـصـرِكَ مـن عَـصـرِ

10 ـ إذ الـعـيـشُ غَـضٌّ والـشـبـيـبـةُ نَـضْـرَةٌ
أمـيـسُ بـهـا كـالـغُـصـنِ فـي الـوَرق النَّـضْـرِ

11 ـ لـيـالـيَ لا أرضـى مـن الـوصـل بـالـمُـنـى
ولا أتـحـسَّـى أكـؤسَ الـهـمِّ بـالـصَّـبـرِ[59]

إن معاناة كهذه وشعوراً بالغربة والأسر جعلته نهباً لأحاسيس تهزُّه كلَّ لحظة لتشده نحو نجد والحجاز، فولدت لديه حالةً ما استطاع التخلص منها، حتى وزعها على مجمل شعره وافتتح بها مدائحه لأبيه ومراجعاته مع أخيه[60]، بما يعيد إلى نفسه نشوة الأمل بالعودة، وفي مدائحه النبوية[61] وجد سبيله للتشبث بالرسول الكريم ﷺ، ليشفع له بالعودة إلى دياره، حتى تحقق له ذلك عام 1114هـ، بعد نواح وعيون دامعة وقلب أسير متكسر وجوى وحسرات وأمانٍ وآمال وذكريات، غادر ابن معصوم «برهانبور» متوجهاً إلى مكة، ولما وصلها سجل الشاعر لحظات تركه الهند التي لا رجعة إليها!، ثم لقاءه بمكة ثانية واستنشاقه نسيمها، ولمَّا لاح سنى البيت الحرام عاد عسره يسراً. وبأبيات كشفت عن طبع وعذوبة ماضياً مؤلماً وحاضراً مشرقاً كثيراً ما تمناه فيقول:

12 ـ كـأنّـي بـفُـلـكـي حـيـن مَـدَّت جَـنـاحَـهـا
وطـارت مـطـارَ الـنَّـسـر حَـلَّـق عـن وكـر

(59) م.ن: 208.

(60) تراجع القصائد في الديوان: 339، 341.

(61) م.ن: 385، 391، 437.

13 ـ أَسْفَتْ[62] على المَرْسى بشاطىء جدة[63]
فـجـدَّدتِ الأفـراحَ لـي طَـلـعـةُ الـبَـرّ

14 ـ وهـبَّ نـسـيـمُ الـقُـرب مـن نـحـو مكَّـة
ولاح سَـنـى الـبـيـت الـمـحـرّم والـحِـجْـرِ

15 ـ وسـارت رِكـابـي لا تَـمـلُّ مـن الـسُّـرى
إلـى مَـوطـنِ الـتُّـقـوى ومُـنـتَـجـعِ الـبِـرّ

16 ـ إلى الكـعـبـةِ الـبـيـتِ الـحـرام الـذي عَـلا
عـلـى كـلِّ عـالٍ مـن بـنـاءٍ ومـن قَـصْـرِ

17 ـ فـطـفـتُ بـه سَـبْـعـاً وقـبـلـتُ رُكـنَـه
وأقـبـلـتُ نـحـو الـحِـجْـر آوي إلـى حِـجْـرِ

18 ـ وقـد سـاغَ لـي مـن مـاءِ زمـزمَ شَـربـةٌ
نـقـعـتُ بـهـا بَـعـد الـصَّـدى غُـلَّـة الـصَّـدرِ

19 ـ هـنـالـك أَلْـفَـيـتُ الـمـسَّـرةَ والـهـنـا
وفـزتُ بـمـا أمَّـلـتُ فـي سـالـفِ الـدَّهـرِ

22 ـ وجئتُ مِنَى والقلبُ قد فاز بالمُنى
ومـا راعـنـي بـالـخَـيـفِ خـوفٌ مـن الـنَّـفـر

26 ـ ووجَّـهـتُ وجـهـي نـحـو طَـيـبـةَ قـاصِـداً
إلـى خـيـر مَـقـصـودٍ مـن الـبـرّ والـبَـحـرِ

30 ـ وعَـفَّـرتُ وجـهـي فـي ثَـراهُ لـوجـهـهِ
وطابَ لي التعفيرُ إذ جئتُ عن عُفرِ[64]

30 ـ فـقـلـتُ لـقـلـبـي قـد بـرئـتَ مـن الـجـوى
وقـلـتُ لـنـفـسـي قـد نـجـوتِ مـن الـعُـسـرِ[65]

---

(62) أسفت السفينة: دنت ورست، أخذها من أسف الطائر: دنا من الأرض.

(63) وردت في الديوان (بشاط ء) والصواب ما أثبتناه.

(64) العفر (بالضم): طول العهد، وقلة الزيارة والبعد.

(65) الديوان: 171 ـ 172.

فكان لقاء بعد طول غربة وأملاً تحقق، فسيطرت مشاعر الفرح والانشراح على الشاعر من الأرض التي تمنى أن تطأها قدماه، وراح يسرح ويمرح بين مكة والمدينة، يطير من هنا ليحط هناك، كالطائر الذي غادر قفصه، وبمثل هذا الإحساس الفريد بالشوق للأوطان خلد ابن معصوم أرق القصائد التي ناح فيها وبكى، وتكاد تذكر، ولم ينس الوطن في أحلك الظروف وأصعبها، فجاءت هذه القصائد صادقة الأحاسيس وصدرت عن معاناة حقيقية من الغربة، فكانت، بحق، فريدة في أسلوبها وموضوعاتها، وإن تشابهت من حيث البناء مع حجازيات غيره، إلا أنها تفترق عنها بصدق التجربة، وربما هي شبيهة برواميات أبي فراس يوم وقع في الأسر، وقصائد ابن حمديس[66] لما ترك صقلية بعد احتلالها، وأندلسيات أحمد شوقي[67]. وهكذا أضاف ابن معصوم إضمامة فنية جميلة لتاريخ الشعر العربي تفيض بمعاني الوفاء والحنين إلى التاريخ والأرض والدم العربي، مليئة بالفن والشاعرية المطبوعة، واختار لها أجمل الأوزان وأرق الألفاظ.

(66) ينظر ديوان ابن حمديس الصقلي، أماكن متفرقة.

(67) تنظر أندلسيات شوقي، صالح الأشتر، أماكن متفرقة.